الذين يسكنون في السطح

الابن: أين ذهب أبي يا أمي؟

الأم: ذهب ليأتينا بالطعام يا بني.

الابن: ولكنني يا أمي رأيته يصعد إلى السطح.. هل يوجد طعام هناك يا أمي؟

الأم: كلا يا بني لا يوجد طعام هناك.. أنت تعلم مثلي تماماً أن من يصعد إلى السطح لا يعود مرة أخرى فلماذا تُكثر من الأسئلة؟

فرَّت دمعة من عينها، فاقترب منها الابن في حنان وقال مشجعاً: ولكن صديقي موسى قال لي ذات مرة: إن أحد أعمامه صعد إلى أعلى ثم عاد مرة أخرى.

الأم: نعم يا ولدي، البعض يعود ولكنهم لا يعيشون كثيراً بعد ذلك وأنت تذكر ما الذي حدث لذلك العم بعدها، أليس كذلك؟

الابن: بلى أذكر، لقد عاد مضرجاً في دمائه، مصاباً في فمه ثم مات بعد يومين من رجوعه فما الذي حدث؟

الأم: لقد اجتمعتُ بصديقة لي ذات مرة كانت قد رجعت من أعلى وحكت لي عما رأته من أهوالٍ هناك يا بني..

الابن: احكِ لي يا أمي.. احكِ لي..

الأم: نعم سأفعل، فقد كبرت أنت الآن وسأحكي لك حتى تتعظ ولتحكي لأبنائك عندما أموت، ولكن عدني أولاً يا بني، ألا تصعد إلى أعلى أبداً مهما كانت الظروف.

الابن: (وهو ينظر إلى عينيها الدامعتين) أعدك يا أمي.. أعدك..

الأم: شكراً يا بني لقد أثلجت صدر أمك المكلوم.. إذاً سأحكي لك: يقولون: إن وحوشاً تسكن هناك.. إنها وحوش قبيحة عملاقة حتى إن رأسها تقريباً يساوي جسمي وجسمك معاً وفم الواحد منهم يستطيع ابتلاعنا على دفعة واحدة.

الابن: (بخوف): يااه..

الأم: بعد أن يصعد أحدنا إلى أعلى يتركون سلاحهم الفتاك في فمه حتى يموت من العذاب.. وليتأكدوا من موته يتركونه دون أن يستطيع التنفس بضع ساعات أخرى ثم يحرقون جلده بوحشية بشيء أصفر لا مثيل له عندنا..

الابن: (في ذعر) وماذا يحدث بعد ذلك يا أمي؟

الأم: (وهي تنظر بعيداً) يأكلونه يا ولدي.. يأكلونه بكل وحشية وشراسة.. ومن يفلت منهم - وهم قليل يا بني - يرجع منهكاً في بدنه مصاباً في فمه...

قاطعها الابن متسائلاً: ولماذا الفم بالذات يا أمي؟

ندت من شفتيها تنهيدة تنم عن قلة الحيلة ثم قالت: ما زلت صغيراً يا بني ولكنني سأشرح لك. إن من يسكنون السطح يريدون أن يبقوا في السطح وهم مطمئنون أننا لن نهددهم، طالما جُل همنا هو لقمة عيشنا. ومن يؤخذ منا عندهم إما أن يسجن لفترات طويلة ثم يأكلون لحمه نيئاً، وإما أن يتركوه بعد أن تفتر قواه ويرجع مصاباً في فمه حتى لا يتكلم أو يحكي ما رآه عندهم، حتى لا نثور عليهم ويبقوا هم في السطح ونبقى نحن في الأعماق لا حول لنا ولا قوة... هل فهمت شيئاً يا بني؟

الابن: (وبدا وكأنه لم يفهم): وماذا يحدث لو نزلوا هم إلينا يا أمي؟ ماذا نفعل؟

الأم: لقد حمانا الله منهم يا بني فهم لا ينزلون إلينا إلا نادراً وقوات المقاومة تواجههم بكل قوة عندما يفعلون وفي بعض الأوقات..

قاطعها الابن في حماس ودهشة: انظري يا أمي لقد ترك أحدهم لنا بعض الطعام.

الأم: ماذا؟

تقدم الابن بسرعة نحو الطعام وأطبق عليه بفمه.. وصرخت فيه الأم: كلا.. لا تفعل.. ولكن سبق السيف العذل: فأمام أعين الأم المسكينة أمسك خطافٌ ضخمُ بفم ابنها وسحبه إلى أعلى نحو السطح بعنف وهو يصرخ في ألم: أمي.. أمي.. لقد خذلتك يا أمي.. لم أكن أعرف.. لم أكن أعرف! ثم صرخ في وجع: آآه.. فمي.. فمي.. وصرخت الأم في لوعة: لاااه.. وهي تنظر إلى أعلى في جزع نحو ابنها الشاب الذي غاب تماماً عن الأنظار.

وهناك فوق السطح دار ذلك الحوار:

ـ لقد أمسكت بها!.. لقد أمسكت بها!!

ـ اجذب خيط السنارة يا جمال.. اجذب بشدة..

جذب جمال السنارة بقوة حتى رأى السمكة المسكينة وهي تتلوى ثم ضحك بصوت مرتفع وهو يقول: كم أحب الصيد في البحر الأحمر! إن الصيد في مصر ممتعٌ بحق! أرأيت؟! ألم أقل لك أنها سمكة موسى؟!.. ثم أردف قائلاً في خبث: أرأيت يا سيادة العميد؟ فأنا لا أتمتع بالفراسة في عملي كشرطي فحسب بل وفي أوقات الفراغ أيضاً...

نظرت السمكةُ إليه في جزع وتذكرت أمها والوعد الذي أخذته على نفسها وندت صرخة من الأعماق.. لم يسمعها آكلو اللحوم الطرية الذين يسكنون السطح...